اطوار الشعراء الغريبة

للشعراء عادات غريبة وأخلاق خاصة واطوار متفاوتة و بدوات متباينة فمنهم من لا يعتني بنفسهِ في مأكل وملبس ومبيت. ومنهم من ولع بالاعتزال والزهد في الدنيا والتقشف في العيش والشكوى من الدهر والناس. ومنهم من يتأثرون لاقل ألم أو ضغط فهم والمصوّرون والموسيقيون متفقون في هذه الطباع . ولكنّ خفة الروح وذكاء الخاطر و بداهتهُ او رويتهُ والالفة وحب الجمال والشفقة وسلامة النية والاريحية والمروءة والغيرة ونحوها كلها من مميزاتهم وما احسن قول ابي الحسن فيهم

لله في ما يكلفون مغارمٌ عند الكرام لها قضاء ذمام
ومغارم الشعراء في اشعارهم انفاق أعمارٍ وهجر منامِ
وجفاء لذّات ورفض مكاسب لو خولفت حرمت من الاعدامِ

ومنهم من ولع بالمسكر كل الولع . وآخرون ألفوا التدخين والبعض تناول الافيون . ومنهم من أنسوا بالحيوانات والطيور الاهلية وآخرون نفروا منها. و بعضهم هذّبوا منظومهم وراجعوهُ كثيراً ولم يظهروهُ الاّ بعد ان وثقوا بحسنهِ. والبعض ارسلوا قصائدهم بنت الساعة وعفو القريحة الى غير ذلك من غرائب الاطوار التي نشير الآن الى اهمها

اطوارهم في التهذيب والتنقيح

عُرف العرب الأولون بالارتجال والابتداء ومع ذلك فقد نبغ بينهم من احب الرويّة والتهذيب والمراجعة فهذا امرؤ القيس كان كثير الاختيار للقوافي يعيد فيها النظر الى ان يختار احسنها بدليل قولهِ

اذود القوافيَ عني ذيادا كذود غلامٍ جريءٍ جوادا
فلما كثرنَ وعنّينهُ تخيّر منهنّ ستّاً جيادا
فاعزل مرجانها جانباً وآخذ من درّها المستجادا

ومثلهُ عدي بن الرقاع فانهُ كان يتروّى بنظمهِ حتى يخرجهُ لا زيف فيهِ وقد قال

وقصيدة قد بتُّ اجمع بيتها حتى اقوّم ميلها وسنادَها
نظر المثقف في كعوب قناتهِ حتى يقيمَ ثقافهُ متآدها

وغلب على زهير بن ابي سلمى المزني احد اصحاب المعلقات العناية بتقويم الالفاظ ووصف

المعاني حتى لقبت قصائدهُ بالحوليات لانهُ كان ينظمها في ستة اشهر وينقحها في ستة فلا تتداولها الايدي الاَّ بعد مرور حول عليها . وقيل كان يعملها في شهر وينقحها وينهذبها في احد عشر شهراً فسمي منظومهُ الحولي المنقح ومثلهُ النابغة الذي كان ابو عبيدة يشبّه بهِ الاخطل نصحة شعرهِ اذ كان يقول تسمين بيتاً ثم يختار منها ثلاثين فيطيرها. وكان الاصمعي يقول زهير والنابغة من عبيد الشعر يريد انهما يتكلفان اصلاحهُ ويشغلان بهِ خواطرهما وحواسّهما . وحذا حذوهما كثير من شعراء الجاهلية كالحطيئة الذي سماهُ الاصمعي بعبيد الشعر لانهُ ينقحهُ ولم يذهب فيهِ مذهب المطبوعين وهو الذي كان يقول « خير الشعر الحولي المنقح المحكك » . وكان يصرف شهراً لنظم القصيدة ثم يعيد النظر فيها ثلاثة اشهر فيبرزها بعد ذلك كالعذراء المتبرجة المتأنقة على حد قول الشاعر

يزيدك وجههُ حسناً اذا ما زدتهُ نظرا

وذهب هذا المذهب في المراجعة والتدقيق والتمحيك وتقويم الالفاظ وتصحيح المعاني اوس بن حجر وطُفَيل الغنوي الذي سمي محبّراً لحسن شعرهِ والنمر بن تولب الذي سماهُ ابو عمرو بن العلاء الكيّس لرشاقة نظمهِ

ومن شعراء الجاهلية من استوت عندهم الروية والبديهة فكانوا في الحالتين مجيدين مثل هدبة بن الخشرم العذري وطرفة بن العبد البكري ومرة بن محكان السعدي . والاحمر السعدي . والاحمر السعدي هو القائل في وصيتهِ

من القول ما يكفي المصيبَ قليلهُ ومنهُ الذي لا يكتفي الدهرَ قائلهُ
يصدُّ عن المعنى فيترك ما نجا ويذهب في التقصير منهُ تطاوُلهُ
فلا تلكُ مكثاراً تزيد على الذي عنيتَ بهِ في خطبِ امرٍ تزاولهُ

واقتفى آثار ذوي التنقيح من جاء بعدهم من الشعراء مثل جرير فانهُ كان اذا اراد ان يؤيد قصيدة صنعها ليلاً يشعل سراجاً ويعتزل اهلهُ وربما علا السطح وحدهُ وغطّى رأسهُ رغبة في الخلوة بنفسهِ وهكذا فعل في قصيدتهِ التي اخزى بها بني نمير . وكان الفرزدق لا يميل الى الارتجال ولكنهُ ليس بكثير التهذيب. واما الاخطل النصراني فانهُ بقي سنة كاملة يهذب قصيدتهُ « خفَّ القطين فراحوا منك او بكروا » . ومثلهُ مسلم بن الوليد الذي سموهُ زهير المولّدين لانهُ كان لا يرتجل ولا يبتدهُ . وبشار بن برد الاعمى الذي سبق اهل عصرهِ بنظمهِ ومن قولهِ: « والله ما ملك قيادي قطُّ الاعجاب بشيء مما آتي بهِ » . ومثلهُ كلثوم ابن عمرو العتابي . ومنصور النمري وابو نواس فانهُ كان ينظم القصيدة ثم يتركها ليلة ويعيد

النظر فيها فيلقي اكثرها ويقتصر على عيونها فلهذا جاءت اكثر قصائدهم قصيرة . وهكذا فعل عبدالله بن المعتز الخليفة وهو القائل

والقول بعد الفكر يؤمن زيغهُ شتان بين رويةٍ و بديهةِ

وكان ابرهيم بن العباس الصولي يقول الشعر ثم يُسقط رديئهُ ثم الوسط ثم يختار مما بقي فلا فلا يُبقي من القصيدة الاَّ اليسير وربما لم يترك منها الاَّ بيتاً مفرداً . وكان ابو تمَّام يكرهُ نفسهُ على العمل حتى يظهر التكلف في شعرهِ بخلاف ما رواهُ عنهُ ابو هلال العسكري في كتاب «الصناعتين» من «انهُ كان يرضى بأول خاطر فنعي عليهِ عيبٌ كثير» ومما يدل على ولعهِ بالتهذيب قولهُ وهو اعرف بنفسهِ

خذها أبنة الفكر المهذَّب في الدجى والليل اسودُ رقعة الجلبابِ

وقال في وصيتهِ للبحتري «وانظم القصيدة اولاً وهذبها آخراً» فكان البحتري يلقي من كل قصيدة بعملها جميع ما يرتاب بهِ فخرج شعرهُ مهذَّباً وسمي بسلاسل الذهب ومع ذلك فليس في منظومهِ الكافة التي في شعر ابي تمام ولعلهُ كان اطبع منهُ في النظم . وكان ابو العلاء المعرّي ممن يذهبون مذهب التنقيح بدليل قولهِ

من اللاَّتي امدَّهنَّ طبعٌ وهذَّبهنَّ فكرٌ وانتقادُ

وهكذا كان ابن الرومي القائل

نار الروية نارٌ جدُّ منضجةٍ وللبديهة نارٌ ذات تلويحِ
وقد يفضلها قومٌ لعاجلها لكنهُ عاجلٌ يمضي مع الريحِ

وكان الارَّجاني غيوراً على المعاني اذا ظفر بأحدها لا يدع فيهِ لمن بعدهُ فضلاً فكان يهذَّب اللفظ والمعنى . وكان زكي الدين ابن ابي الاصبع يحبّ ذلك حتى قال في كتابهِ تحرير التحبير: «وكرّر التنقيح وعاود التهذيب ولا يخرج عنك ما نظمتهُ الاَّ بعد تدقيق النقد وامعان النظر» وذلك اشبه بخطة ابي احمد بن النجم القائل

ربَّ شعرٍ نقدتهُ مثل ما ينقد رأسُ الصيارف الدينارا

واقتفى كثير من المولدين والمتأخرين اثر اولئك الشعراء حتى ادمج البديعيون نوع «التهذيب والتأديب» في بديعياتهم وممن ذكرهُ عزّ الدين الموصلي وصفي الدين الحلي وابن حجة الحموي وعائشة الباعونية والشيخ عبد الغني النابلسي الى ان ذكرهُ ايضاً منهم الخوري ارسانيوس الفاخوري من شعراء القرن الماضي

ومما ورد في كلام العرب دالاً على هذه الخطة قول بعضهم

لا تعرضنَّ على ازواة قصيدةً ما لم تكن بالغت في تهذيبها
فاذا عرضتَ القول غير مهذَّبٍ عدُّوهُ منك وساوساً تهذي بها

وقال عبدالله بن طاهر : « آفة الشاعر الملل لانهُ يقول خمسين بيتاً وفيها بيت رديء فلا يحتمل قلبهُ ان يسقطهُ » ولعلَّ المتنبي كان من هؤلاء لان الساقط من شعرهِ كثير ولكنهُ مثبت في ديوانهِ . وقال الآخر : « خير الكلام ما قلَّ ودلَّ ولم يملَّ » . وقال بعضهم : « الفقر آفة الشعر وانما ذلك لان الشاعر اذا صنع القصيدة وهو في غنىً وسعة نقَّحها وامعن النظر فيها على مهل » . الى غير ذلك مما يدلُّ قليلهُ على كثيرهِ

واما الافرنج فان شعراءهم ولعوا بالتنقيح ولاسيما الانكليز لما في طبعهم من التأني حتى قال شاعرهم اللورد بيرون : « ان فرائد الاشعار ثمرة عقل مكدود في جسم تعب » وقال شكسبير : « التعجيل لهُ عواقب خطرة » . وقال ارسطو الفيلسوف قبل ذلك بعصور طويلة : « لكل شيء صناعة وصناعة العقل حسن الاختيار » وقيل « لا تخرج بنات افكارك الاَّ بعد انتقادها وتهذيبها لان الناس لا يسألون في كم عملتها ولكن يسألون كيف هي من البلاغة » . وكان هولمس الشاعر الانكليزي يهذب كلامهُ وهو القائل : « هذِّب كل كلة قبل النطق بها » وجاراهُ توماس مور الذي كان كثير العناء في منظومهِ ومع ذلك فلم تظهر عليهِ آثار الكلفة كما حدث لابي عبادة البحتري من هذا النوع . وكثيراً ما كان مور هذا يبلغ حداً بعيداً بالتنقيح حتى انهُ كان اذا اعيدت اليهِ النسخة (البروفة) ليصلحها يغيرها احياناً برمتها . ومثلهُ كان اسكندر پوب فانهُ لم ينشر شيئاً من شعرهِ حتى يبقيهُ بضع سنوات تحت التهذيب والتصحيح وقد يشتغل اياماً طويلة في نظم مقطوعة واحدة . واما غراي فانهُ كان يكتب قصيدتهُ ثلاث عشرة مرة وينقحها ويراجعها بنصب شديد وجلَد غريب

ومن اشتهروا بكثرة المراجعات توماس كمل الذي كان يكدُّ ذهنهُ ويحصر نظرهُ في عملهِ ولاسيما قبل ان يمثلهُ بالطبع فيعيد فيهِ النظر الطويل و يبدِّل صيغهُ وقوالبهُ الى ان تستقيم لهُ صورتهُ فيقرُّها ويعتمد عليها . وحذا حذوهُ لورد تينسون شاعر الملكة فكتوريا فانهُ اعاد كتابة قصيدتهِ « قم الى الحديقة يامور » نحو خمسين مرة وكان يصرف اسابيع طويلة في تنقيح قصيدة واحدة

ولم يكن لونفلو الشاعر الاميركي اقلَّ تعملاً منهم بل كان ينظم قصيدتهُ في ستة اسابيع وينفق على تهذيبها ستة اشهر . واريوستو بقي عشر سنوات على نظم قصيدة ولم يمل-

من مراجعتها وتغييرها حتى احكم نسجها سُدًى ولحمةً فجاءت صفيقة على حد قول الشاعر

حبكت على لبّين اذ تحاكُ تخبطكَ الشوكُ ولا تشاكُ

وكان شلر كبير شعراء الجرمان كثير الجلد على العمل وادمان النظر الطويل فيحيي ليلهُ متفكراً متروّيًا بمراجعة ونقيح بنات افكاره . وهكذا كان بوپير يغيّر منظوماتهِ مائة مرة قبل ان يقرّ عليها ويرسلها بين قومهِ

وكان ماليرب الشاعر الفرنسوي اكثر ابناء جنسهِ تهذيباً ومراجعةً ولم ينشر شيئاً من منظومهِ الاّ بعد ان ابقاهُ سنوات طويلة عميلاً فيهِ فكر التنقيح ويد التهذيب ولم يظهر احدى المراثي التي نسج طرازها الاّ بعد مضي ثلاث سنوات عليها وهي موضع بحثهِ وشغلهِ الشاغل

وولع بوالو بكثرة التنقيح والمراجعة غير مقصر في اعادة النظر ولا كالّ من البحث والتحقيق فبرز كلامهُ نقيّ الديباجة صقيل الصفحات كالمرآة النظيفة التي تريك اسارير وجهك . وكان ڤيكتور هيكو ينظم القصيدة اكثر من خمسين مرة فاذا أعاد النظر فيها حذف معظمها حتى قد لا يختار منها سوى بيت واحد

وكانت الروية شأن كثير من شعراء الفرس والترك مثل محمد نامق كالب بك الشاعر التركي الشهير الذي يقال انهُ كان دقيق التنقيب كثير المراجعة والتنقيح وغيرهم من شعراء العجم والعرب الذين لم نقف على عاداتهم وهي خطة رائعة جديرة بالتحدّي ليسلم المنظوم من شوائب الاغلاط وبوادر السقطات على حد قول بعضهم

يا من يقول الشعر غير مهذّب ويسومني التهذيب في تهذيبهِ
لو ساعدتني كل املاك السما لعجزت عن تهذيب ما تهذي بهِ

عيسى اسكندر المعلوف

شكوى ونجوى

عن ڤيكتور هيكو بتصرّف

زهرةٌ في الحقل يوماً سألتْ من فراش الحقل معشوقاً صغيرا
ما الذي يُلهيك عني جاعلاً لك كالنجم اختفاء وظهورا
غائباً حيناً وحيناً حاضراً مالكَ تقسي غيابًا وحضورا
انما انت رفيقي في الهوى ابداً ارشفك الثغر الطهورا